الموصل سنة ١٩٠٩ بقلم ويلكي يونك
(دراسة نقدية)

أ.د. ذنون يونس الطائي*

تاريخ استلام البحث ٢٠١٣/١٠/٢٨ تاريخ قبول النشر ٢٠١٤/١/٧

ملخص البحث:
يتضمن البحث قراءة متأنية نقدية في تقرير نائب القنصل البريطاني في الموصل سنة ١٩٠٩ عن الاوضاع الاجتماعية في المدينة وما تضمنه من مخالفات وافتراءات، وجهل بطبيعة مكونات المجتمع الموصلي وطوائفه. فجاءت احكامه خاطئة ومتناقضة تنم عن تعصب الكاتب وعدم مصداقيته. مما استوجب نقدها بشكل علمي وموضوعي وصولاً الى الحقائق التاريخية.

Mosul in 1909 by Wilkie Young
(critical Study)

Prof. Dr. Thanoon. Y. Al Taee

Abstract:
The research deals with to readers to the report of the deputy British Council in Mosul 1909 for the social conditions in the city of mosul and including of irregularities and ignorance of the nature of the components of society, his judgments are wrong and contradictory to reflex intolerance writer and lack credibility. Should be critiqued by scientific objective and down to the scientific facts.

* استاذ التاريخ الحديث والمعاصر/ مدير مركز دراسات الموصل/ جامعة الموصل.

مقدمة:

الموصل في سنة ١٩٠٩ تقرير اعده ويلكي يونك (E. K., H. E. wilkie Young) ترجمه السيد عامر بلو اسماعيل ونشره في مجلة اضاءات موصلية العدد (٤٩) تموز ٢٠١١، التي تصدر عن مركز دراسات الموصل وعدد صفحاته عشرة. هذا التقرير رفعه نائب القنصل البريطاني في الموصل سنة ١٩٠٩ إلى حكومته عن الأوضاع العامة في الموصل وقد نُشر في مجلة دراسات الشرق الأوسط *"The Middle Eastern Studies"* المجلد السابع، العدد الثاني، في أيار ١٩٧١، ثم تولت نشره شركة تايلر وفرانسيس المحدودة".Taylor & Francis,Ltd" ضمن ما يسمى أرشيف جستور "Jstor archive" على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت).

وللتقرير مقدمتان الاولى للمترجم والثانية لناشر التقرير. وكاتب التقرير هو نائب القنصل البريطاني في مدينة الموصل وشخص آخر لم يفصح عن اسمه واكتفى بذكر حرفين هما (E. K).

و من المعروف في كتابة التقارير عن احوال اية بلد لابد من توفر مسألتين الاولى هي: الموضوعية والنزاهة ووصف الاحوال بكل دقة وامانة كونه مرفوع للجهات العليا الرسمية وتبنى عليه سياسات وتتشكل رؤى، والثانية: شخصية الكاتب ومدى ثقافته وسعة اطلاعه والمامه بالاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

والمطلع على ما سطره (يونك) يلحظ تلك المشاعر والاحاسيس المتناقضة المكتنزة بالكره الشديد للمسلمين في المدينة، وقد اسبغ عليهم شتى الاوصاف والنعوتات (التعصب، والجهل، الهمجية الجشع، وغيرها)، فضلاً عن جهل الكاتب بتاريخ المدينة واهلها وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم، فجاءت احكامه مليئة بالمغالطات التاريخية التي تنم عن عدم فهم حقائق الاوضاع الاجتماعية لابناء الموصل وتاريخهم المديد، ويبدو لنا ان كتاباته تلك قد سطرت وفق نظرة مسبقة عن واقع المجتمع الموصلي، وعكست

طبيعة روحه المتعصبة وشخصيته المتغطرسة، وبذلك خالف امانته الوظيفية بنقل الاحداث بكل دقة وشفافية.

وعليه فان ذلك التقرير بحاجة الى وقفة نقدية تحليلية لتصويب الاخطاء، والمواقف وايضاح ما أشكل عليه فهمه، على صعيد سير الاحداث التاريخية (الاسباب والنتائج) الى جانب العديد من التسميات الخاطئة والاوصاف والنعوتات غير الدقيقة التي وردت في التقرير.

مقدمة المترجم:

كان العراق خلال التاريخ الحديث منطقة للصراع العسكري العثماني[١] الفارسي الذي أنهك قواه وكان من نتائج ذلك الصراع تدهور أوضاع البلد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وخربت بنيته التحتية وأهملت عن قصد أو عن غير قصد المشاريع والخدمات مما أدى بالتالي إلى أن أفسِدَت مؤسساته الإدارية والخدمية، وقد استمر هذا التدمير والخراب لمدة ما يقرب من أربع قرون، ومما زاد الطين بلة أن اجتاحت الموصل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر سنوات الجفاف والفيضانات المدمرة وموجات الجراد النجدي[٢] التي دمرت الأخضر واليابس، وقد استمرت تلك الأوضاع المأساوية إلى أن دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا ضد بريطانيا العظمى ودول الحلفاء، وبعد كل تلك الظروف التي مر بها العراق بعامة والموصل على وجه الخصوص يأتي نائب القنصل البريطاني مسؤول الإمبراطورية التي لم تغب عن أرضها الشمس وبلد الثورة الصناعية في العالم آنذاك ليقيس وبشكل غير موفق مستوى تقدم سكان الموصل سياسياً واقتصادياً وثقافياً بمستوى سكان لندن وغيرها من مدن دولة الاستعمار متناسياً أن إمبراطوريتهم قد تم بنائها على نهب ثروات وموارد كثير من بلدان العالم الثالث ومن ضمنها العراق من خلال الاستعمار العسكري، ولذلك نجده أورد في متن تقريره ألفاظاً لا تليق بكل ما هو عربي أو موصلي بل وانهال في تقريره بالتجريح والشتائم[٣] على كل ما هو موصلي أو عربي ولم يسلم منه حتى نصارى

الموصل، ورغم تجني نائب القنصل البريطاني على الموصل وسكانها إلا أن تقريره لم يكن يخلو من الفائدة التاريخية لشموله تقريباً مختلف مجالات الحياة في الموصل آنذاك، وليجد القارئ الكريم دروساً كثيرة من هذا التقرير لم نُشِر أليها بل فضلنا ترك أمر كشفها للقراء وفيما يأتي الترجمة الكاملة للتقرير.

مقدمة الناشر:

إن تقارير ومراسلات القنصلية البريطانية المتصلة بولايات الإمبراطورية العثمانية تشكل وإلى يومنا هذا مصدراً قيِّمَاً للمعلومات عن تلك الولايات وهي بالنسبة لأماكن ومواضيع معينة تعد حقاً في بعض الأحيان المصدر الوحيد، إذا أردنا أن نعرف ليس ما قد حدث فقط بل وماذا يشعر إذا سُكن في بغداد والبصرة وحيفا وطرابلس أو حلب خلال السنوات الغامضة[٤] من القرن الأخير من الحكم العثماني حينها سنجد أن هذه الاراشيف لا غنى عنها، ومن بين جميع الوظائف القنصلية في الولايات الناطقة باللغة العربية تلك الوظائف التي فُتِحَت في بلاد ما بين النهرين (بغداد والبصرة والموصل)، والتي سنجدها بشكل عام بالتقارير وعلى نحوٍ بالغ التفصيل والدقة، والسبب بلا ريب لا يتطلب بحثاً لأن بلاد ما بين النهرين كانت ذات أهمية خاصة لحكومة الهند البريطانية من النواحي السياسية والاقتصادية، وبالتحديد في بغداد والبصرة إذ كانت المصالح البريطانية أساسية ومهيمنة.

في هذه الثروة من الوثائق تبرز المراسلات والتقارير على نحوٍ خاص ومميز لكونها موجز ملائم لموضوع معين مبعثر العناصر ومن الصعب الحصول عليها، ومن تلك التقارير هو التقرير عن الموصل الذي كتبه نائب القنصل البريطاني في الموصل أج. أي. ويلكي يونك في كانون الثاني ١٩٠٩ والمطبوع في أدناه، إن الندرة العامة للمعلومات المتعلقة بالموصل خلال هذه الفترة، والدهاء والإدراك والسلامة في هذا التقرير قد أبعدته عن جادة الغموض، وما قد أضاف أهمية أخرى للتقرير هو انه كُتِبَ في الفترة ما بين الانقلاب[٥] بعد تموز ١٩٠٨ وقبل نيسان ١٩٠٩ عندما زُعْزِعَت سلطة الدولة وأخذ أعيان الموصل يشعرون بالقوة والتقدم في الحكم الذاتي وهم في

الحقيقة عملوا لهذا الحكم قبل فترة قصيرة من تاريخ إعداد هذا التقرير، إذ ثارت الموصل بعنف شديد جداً ضد شيخ السليمانية[٦] (الشيخ سعيد) الذي كان آنذاك يقوم بزيارة للمدينة وخلال الثورة قُتِلَ الشيخ مع عدد من أتباعه الأكراد، وقد قدم نائب القنصل البريطاني في الموصل وصفاً حياً لتفاصيل ذلك الثوران[٧] إذ قال: "إن خطة الحملة قد تم ترتيبها في مجلس في أحد بيوت الموصل المهمة قبل ليلة من الثورة، وأبو جاسم أو همجي مثله قد أمر بتنفيذها مقابل أن وُعِدَ بلا شك بعباءة جديدة أو عددٍ قليلٍ من الليرات، ومن البديهي أنه لا العلماء ولا الأعيان قد ظهروا أثناء الحادث السيء، وعندما انتهى الحادث ذهبوا على شكل مجموعة لزيارة الوالي أو ربما إلى مكتب التلغراف وظهروا بمظهر الحزن القابل للتصديق ظاهرياً على حدوث الحادث واتهموا (الغوغاء) بالأمر الذي قالوا عنه أنه للأسف جاهل وغير عقلاني وأنه سوف لن يتوقف طالما مشاعره مُحفزة بقوة"، [كذا] والحقيقة أن مشاعر الغوغاء لم تثار مطلقاً ما لم يثيرها أحدهم.

الأمر الذي زاد من أهمية هذه الملاحظات هو أن المدينة التي وصفوها هي نفسها التي حمتها بريطانيا والملك فيصل الأول من ١٩٢٢- ١٩٢٥ واتخذوا قراراً واضحاً بدمجها بالعراق[٨]، فتقرير يونك يمكّننا من التقييم الجيد للمجتمع والسياسة في الموصل في فترته الأخيرة.

نص التقرير

ملاحظات حول مدينة الموصل

تقع مدينة الموصل على الضفة اليمنى من نهر دجلة، وإجمالاً تعد الموصل متساوية البعد عن البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط والخليج العربي، أي حوالي (٥٠٠) ميل في خط مستقيم من تريبيزوند[٩]"Trebizond " والاسكندرونة والبصرة، والرحلة من الاسكندرونة قد تتم بواسطة العربات وتستمر لمدة ١٥ يوماً في ظل الظروف الملائمة وقوافل البغال تحتاج لفترة أطول بأيامٍ قليلة أما قوافل الجمال فإنها بحاجة إلى أكثر من ستة أسابيع وحسب الموسم، والرحلة من الخليج العربي بشكلٍ عام

تأخذ نفس الفترة أي أربعة أيام بطريق البواخر النهرية من البصرة إلى بغداد ومن هناك إلى الموصل إذ تسير القافلة من سبعة إلى إثنا عشر مرحلة.

من الشمال يكون الانحدار أطول إلى حدٍ بعيد، والطريق المباشر يكون من سامسون "Samsun" إلى ديار بكر (١٩مرحلة) ومن ديار بكر إلى الموصل بالانحدار في نهر دجلة على متن الاكلاك من أربعة إلى عشرة أيام وفقاً لحالة النهر، وبالتالي سيتبين أنه بسلك أي طريق تعد مدينة الموصل هي الأقل وصولاً لكبريات مدن الإمبراطورية العثمانية، وهذا يعد أول عقبة في تقدم المدينة[١٠].

وبالنسبة لفصل الصيف في الموصل فإنه يبدأ من نهاية نيسان إلى وسط أو نهاية تشرين الأول وهو فصلٌ حارٌ جداً تبلغ درجة حرارته أكثر من ١٢٠ درجة فهرنهايت[١١] التي تسجل أحياناً في الظل، والسبب في ارتفاع درجة الحرارة إلى حد كونها مرهِقة هو على وجه التحديد أن المنازل قد بنيت من الجص[١٢] إذ تمتص الجدران الحرارة خلال النهار وتطلق هذه الحرارة أثناء الليل لذلك فإن الساعات الأولى من المساء تبدو عادةً بحرارة أيٍ من ساعات اليوم الأربعة والعشرون التي لاحظها الكاتب في شهر آب، وقد زار الموصل مونسيو تيفينو "Thèvenot" سنة ١٦٦٤ وكتب عن الحرارة في الموصل قائلاً: "بعد شروق الشمس بساعتين لا توجد صعوبة في الخروج، بعد هذا الوقت إلى قبل الغروب بساعة يصعب الخروج إذ تكون الجدران ساخنة وتشعر بحرارتها كأنها حديد ساخن"، وكإشارة لاحتفاظ الجدران بالحرارة مثلاً، إن البيض عندما يُترك في غرفة مغلقة في شهر آب[١٣] يفقس بلا أي نوع من الاهتمام.

أما الشتاء فهو مختلف بقسوته، وهو حالياً بارد إلى حدٍ ما كما هو متوقع مع حدوث بعض حالات الصقيع، وقبل ثلاثة سنوات تجمد نهر دجلة بالكامل ودُمِّرَتْ كل أشجار النخيل[١٤] والبرتقال والزيتون والليمون.

إن شهري نيسان وتشرين الثاني يعدان من المواسم العازلة عن مواسم الإزعاج (أي الصيف الملتهب والشتاء القارص) وهما ألطف أشهر السنة فالخضرة

المدهشة لشهر تشرين الثاني تتبع تقريباً نصف سنة من الحر الملتهب الذي يبدو لافتاً للنظر بجدية، كما جعل العرب يطلقون على الموصل أسم أم الربيعين.

أما فيما يخص الجانب الصحي فإن في غياب الأطباء الأوربيين[١٥] كان من الصعب الحصول على تفسير موثوق للحالة المأساوية التي تمر بها المدينة من وجهة النظر الطبية، ومن السخف القول أن الأحوال ستكون أفضل في ظل أي إدارة أخرى، فالبلدية[١٦] لا تعمل أي شيء مطلقاً، وحقيقة أعلن السكان المحليين أنهم كانوا في حالٍ أفضل قبل فترة تأسيس البلديات عندما كانت كل أحياء المدينة تهتم بشؤونها الخاصة، بعد تأسيس البلديات أصبحت الموصل بلا نظام للصرف الصحي، والقمامة كانت ترمى في الشوارع بل وحتى الجثث أحياناً تُترَكُ مرمية حتى تُدَاس تحت الأقدام[١٧]، كل بيت له بئره الخاص به ولكن الماء كان مالحاً قليلاً وكريه الرائحة، وقد كان يجلب لغرض الشرب في قِرَب على ظهور البغال أو الحمير من النهر[١٨]، ويبدو أنه أمرٌ لا يصدق أن معظم ماء الشرب كان يجلب من مكان على ضفة النهر أسفل المدينة أي تقريباً (١٠٠) ياردة أسفل المدبغة، ويبدو أن الأمراض الأكثر شيوعاً كانت السل والتيفوئيد وكذلك أحد الأشكال الخبيثة من الملاريا، وفي تخمين قام به المستوصف الانكليزي[١٩] قدَّرَ مجموع السكان الذين يعانون من السل بشكلٍ أو بآخر بـــ (٨٠%)، كما ذكر المستوصف أن (١٠%) من السكان يعانون من الرمد (التهاب العين) أو من أمراض أخرى من أمراض العيون، وبكل تأكيد أن عدد الناس الذين يشاهدهم المرء في الشوارع عمي العينين أو المصابين بالعمى في إحدى العينين هو عدد مرعب، إذن كان هياج الموصل يختلف عن هياج بغداد لأنه يبدو عاماً وأحيانا شديد الدمار.

وجغرافياً فإن المدينة قد تم بناءها على منحدرين على ربوةٍ كافيةٍ لحجب المنظر العام من بعض المناطق وهذا ما أعطى المدينة أسم عربي آخر وهو "الحدباء"[٢٠]، المدينة محاطة بأسوارٍ[٢١] حديثةٍ نسبياً غير ذات ميزة خاصة، بُنِيَتْ من أجل حماية المدينة ضد غارات العرب[٢٢]، ويتخلل تلك الأسوار عدة بوابات تُغْلَق عند

غياب الشمس، ومن ناحية المتانة والعظمة لا يمكن مقارنتها مع أسوار ديار بكر التي بُنِيَتْ بالكامل من حَجَرِ البازلت وذات انتظام مهيب، ولم تُقدِّم الموصل أي ميزة عمرانية[٢٣] فاتنة فالجوامع فقيرة وخربة، والشوارع شاذة وضيقة وقذرة ومعظمها بدون أي ميزة تجديد فاتنة وعند تجوال المرء فيها في الكثير من الجهات لا يجد أي علامة للفن أو حتى المهارة، وهذه الشوارع تشرف فقط على جدران عالية خربة خالية من النوافذ يتخللها بوابة واحدة مسدودة بشدة ومدعومة بالحديد، وصحيح أن بعض بيوت البيكات واسعة وتضم فناءات واسعة، وكل بيت في الحقيقة عبارة عن حصن يمكن أن يدافع عنه ستة أو ثمانية رجال ضد هجمات الغوغاء الغير محددين الهوية تقريباً، وأحد هذه المنازل شغلته السنة الفائتة نيابة القنصلية البريطانية، هذا المنزل تدنو منه العديد من الممرات المقنطرة، وفي حال تعرض المنزل لهجوم محتمل ينبغي تدمير خمس بوابات رئيسة قبل الوصول إلى الفناء الداخلي، وإن الضرورة لمثل هذا الدفاع مسألة مهمة في مدينةٍ يحتفظ فيها الأغنياء برؤوس أموالهم مخفيةٍ في منازلهم خشية القتل والسرقة.

تنقسم المدينة إلى (٣٦) محلة[٢٤] (حي) كل واحدٍ منها له تقاليده وعاداته وإلى حدٍ ما لهجته، وإن أفراد العائلة الكبيرة يسكنون في نفس المحلة، وفي عدة حالات فإن جميع أفراد أو أتباع العائلة الواحدة يشغلون شوارع المحلة بالكامل[٢٥]، والمشاعر بين المحلات هي عادةً مريرة ولكنها كانت نادراً ما تؤدي إلى بروز مشاجرات يشترك في حالة حدوثها خمسين إلى ستين فرد من الجانبين، المتاريس[٢٦] منصوبة والأسلحة المستخدمة هي الهراوات والعصي والسكاكين والحجارة، وقد حدثت فقط مشاجرة واحدة في السنة الفائتة قُتِلَ فيها رجلٌ واحد وجُرِحَ عدد آخر، الضغائن العائلية هي أمرٌ شائع[٢٧] ولكن قلما تؤدي إلى اعتداءات رغم ما حدث في حالة واحدة في الصيف الماضي، عندما أُقِيمَت وليمة للغداء في إحدى القنصليات أُلغِيَت في اللحظة الأخيرة على أساس وجود هجوم محتمل، فأُغلِق باب القنصلية وَوُضِعَ بيتها في حالة الدفاع.

إن أي محاولة لوضع تخمينات دقيقة هي أمر غير ممكن، فالسكان وإلى اليوم قاوموا بنجاح كل محاولة لتسجيل نسائهم كما هو مألوف في المدن الشرقية، إلا أن هذا الأمر أشد في الموصل دون سواها، إذ لم يتم تسجيل عدد كبير من الأطفال أصلاً، لذلك فمجموع سكان الموصل لا يمكن أن يكون اقل من (١٠،٠٠٠)[٢٨] نسمة معظمهم من المسلمين والباقي نصارى ويهود.

إن اللغة الوحيدة السائدة في المدينة هي العربية (مع وجود مجتمع كردي خارج المدينة يضم ٣٠٠٠ نسمة) وليس من مبالغةٍ كبيرةٍ القول أنه لا يوجد هناك تعليم فعلي عند المسلمين فعند العوائل الكبيرة يوجد عدد قليل من يستطيع فعلاً أن يعبر عن نفسه باللغة التركية، وبقدر تعلق الأمر بعلمي ووعيي هناك مسلم واحد في كل المدينة يعرف لغة أوربية واعني به داؤود الجلبي المترجم في نيابة القنصلية الفرنسية، وهذا الرجل النبيل هو أيضاً الرجل الوحيد[٢٩] الذي زار أوربا، وكحال اسطنبول عدد قليل قاموا بأداء فريضة الحج ونادراً أن يكون هؤلاء من بين أفراد الطبقات العليا، وحتى بغداد وحلب المدينتين القريبتين نسبياً (تقريباً مسافة تسعة إلى عشرة أيام على التوالي) يعرفون بأمر الحج فقط بإخبار الأكثرية من الذين يمكنهم السفر إذا أرادوا ذلك، إني في حالة وئام مع جميع العوائل المسلمة الكبيرة على حدٍ سواء، وكان لي الفرصة أن أدرس عاداتهم خلال العشرة أشهر الماضية، والعائلة الأكبر هي عائلة عبد الجليل[٣٠] التي لم أزر بيوت أتباعها وفي الحقيقة نادراً ما يغادرون منازلهم بل يجلسون في دواوينهم لاستقبال الأشخاص الذين جاءوا ليسلموا عليهم وليقدموا لهم مشاعر الاحترام والتقدير، وبقية ساعات اليوم يقضونها في جناح الحريم، إن منازل الموصل ليس فيها حدائق ومعظمها ليس لها واجهة، وهذا حال حياة ٩ من ١٠ من بيكات الموصل خلال السنة، وتحدث في هذه القاعدة استثناء في حالة واحدة أو حالتين مثل الزيارة العرضية إلى بعض القرى المجاورة التي لهم فيها ممتلكات، والاهتمام بالرياضة قليل جداً، وقيل أن معظمهم يشربون الخمر بإفراط، وباستثناء الجليليين الجميع معروفين بالجشع[٣١]

والطمع وحب اكتساب المال واكتنازه، وفي بيوتهم يرتدون ملابسهم المحلية الجميلة، وفي هذه الأيام بدأوا يرتدون بتقليد مضحك الملابس الأوربية في مناسبات قليلة جداً عندما يخرجون[٣٢]، وفناءاتهم الفسيحة الخربة تعطي ميزة نبيلة لهم، وازدحام الخدم المسلحين في ملابسهم المحلية الجميلة يتماشى إلى حدٍ ما مع مظهر الإقطاع ككل، ولكن الغرف في معظمها هي عادية وغير ممتعة ونادراً ما تحتوي على سجاد وقطع أثاث جيدة.

من المحتمل أن مجتمع مدينة الموصل من أغبى مجتمعات الإمبراطورية العثمانية وأكثرها غروراً، والانطباع الذي يحدث للمرء هو أنه مجتمع قد مات وانحط خلقياً لأجيال من الوجود الفاسد والأناني[٣٣]، وأولئك الذين لا يعملون شيئاً ورغباتهم قليلة – هذه حسن حظ أو سوء حظ للأغلبية –يقضون اليوم تلو اليوم والشهر بعد الشهر في عطالة مطلقة بلا اهتمام أوغرض[٣٤]، والرجال المسنين يجلسون بوقارٍ داخل المنازل والشباب يتسكعون ويتعاطون النميمة في البوابة، ومن المحتمل أنه لا يوجد مكان أقل تأثراً بالحركات في مناطق أخرى من الإمبراطورية مثل الموصل، فمع احتلال[٣٥] الدولة العثمانية للموصل سنة ١٦٣٨ ورغم عدم وجود طاقة وذكاء[٣٦] لدى سكانها اليوم فإنها ولأكثر من ثلاث قرون مَرَّت بقيت المدينة على حالها، تُحكم بكل أساسياتها بعلمائها وبيكاتها وعارضت بنجاح عبر جمود إلى حدٍ ما محافظتها الحمقاء لكل ما يقترب منها من الخارج، مؤخراً السكاكين والشوكات قد دخلت المدينة ولكني قد أخبرتُ وفقاً لمصادر موثوق بها أنه لا يوجد عائلة مسلمة في جميع أنحاء الموصل تستعملها باستثناء الضيوف من أصل خاص حدث[٣٧] أن قدموا إليها.

إن موقف المسلمين إزاء النصارى واليهود الذين يشكلون واحد من عشرة من السكان هو موقف السيد من العبيد الذين يعاملون بنوع من التسامح المتغطرس، وأي علامة طموح أو توق للمساواة تقمعان فوراً[٣٨]، والنصراني عادةً في الشارع يفسح المجال بخضوع حتى لطفل مسلم[٣٩]، فقبل أيامٍ قليلةٍ مضت شاهد الكاتب يهود متوسطي

العمر حسني المظهر يتمشون في حديقة فمر بجانبهم ولد مسلم صغير لم يتجاوز عمره ثمانية سنوات وأثناء ذلك التقط حجراً كبيراً ورما[٤٠] به أولئك اليهود وتبعها أحجار أخرى مع عدم اكتراث كأنما الولد الصغير رما[٤١] على كلب أو طير، فتوقف اليهود وتجنبوه وكانت حركة جيدة منهم، ولكن لم يحدث تذمر[٤٢] أكثر.

وفي وقت مضى كان لامرأة مسلمة نزاع تافه حول سعر دواءٍ ما بيعَ إليها في المستوصف الانكليزي، فقالت للصيدلي: "راح تندم!"، وبعد يوم وأثناء مرور الصيدلي بسوق مزدحم طُعِنَ بقوةٍ (طعنة كادت أن تكون مميتة) من جانب فردٍ هاجمه بغتة من الخلف واختفى في الازدحام ولم يتدخل أحد، فاستحال بالتالي كالعادة الحصول على دليل ولم يتم تعقب المعتدي[٤٣].

في بعض السنوات الماضية عضو في عائلة يعقوبية بارزة في الموصل ساء حظه أن ضايق عائلة مسلمة قوية، وبعد فترة قصيرة بُوغِتَ في الشارع وسُحِبَ إلى فناءٍ وضُرِبَ بقوةٍ إلى درجة أنه مات نتيجة لجراحه، وهذه الأمثلة كثيرة بيد أن ثلاثة منها ستكون كافية للإشارة إلى العلاقات القائمة لسوء الحظ[٤٤].

والميزة الأخرى لمسلمي الموصل التي لُوحِظت هي تعصبهم[٤٥] تجاه الأديان الأخرى، والحقيقة اللافتة للنظر هو أنهم لا يتشابهون من ناحية ملاحظتهم إذ أن اقل من نصف السكان قد أدُّوا فريضة الحج وهم متساوون في إهمال المسائل الأساسية الأخرى، وأولئك المتنفذين لا يتورعون عن مصادرة أملاك الأوقاف أو البناء على المقابر، فالصابونجي[٤٦] معروف بمدافعته عن مصادرة الأوقاف ولا أحد يكلف نفسه عناء معارضته، إن قتل شيخ سيدٍ من عائلة آل البيت وحاشيته قبل ثلاثة أسابيع مضت مثالٌ آخر على قلة الاحترام النابعة عن التقاليد المستندة إلى التعصب[٤٧] لدى سكان الموصل، وهذه النقاط متناقضة مع توجه المسلمين الأتقياء في مناطق أخرى، ذلك التعصب الموجه تقريباً ضد ما حدث تحديداً وليس نابعاً من الاقتداء بالتقاليد أو الالتزام بعقائد

دينهم، ويبدو أن عُرف سكان الموصل منحرف ومنحط ومنه لا نتوقع إلا القليل من الشيء الحسن، وهذا العُرف هو مجرد عرض مؤثر للقوة ينبع من الشر الحقيقي[٤٨].

والاضطرابات الحالية تقدم توضيح جلي للطرق التقليدية التي يتعايش فيها البيكات مع علماء الدين المحليين والصراع مع الحكومة "إن خطة الحملة قد تم ترتيبها في مجلس في أحد بيوت الموصل المهمة قبل ليلة من الثورة، وأبو جاسم[٤٩] أو همجي مثله قد أمر بتنفيذها مقابل أن وُعِدَ بلا شك بعباءة جديدة أو عددٍ قليلٍ من الليرات، ومن البديهي أنه لا العلماء ولا الأعيان قد ظهروا أثناء الحادث السيء، وعندما انتهى الحادث ذهبوا على شكل مجموعة لزيارة الوالي أو ربما إلى مكتب التلغراف وظهروا بمظهر الحزن القابل للتصديق ظاهرياً على حدوث الحادث واتهموا (الغوغاء) بالأمر الذي قالوا عنه أنه للأسف جاهل وغير عقلاني وأنه سوف لن يتوقف طالما مشاعره مُحفزة بقوة"، [كذا] والحقيقة أن مشاعر الغوغاء لم تثار مطلقاً ما لم يثيرها أحدهم، وبشكلٍ متعاقبٍ عَلِمَ الولاة طبيعة هذه المشكلات وكيفية مواجهتها، وقد قيل على أية حال، أن الحكومة لم تعاني من مثل هذه الهزيمة الشنيعة كما حدث في ٦ كانون الثاني[٥٠] الفائت.

وفيما يتعلق بالطبقات الدنيا من الشعب المسلم فرغم جهلهم ووحشيتهم[٥١]، اعتقد أنه لا يوجد أكثر منهم إذعاناً في كل تركيا، فعلمائهم وأعيانهم يحكمونهم كقطيع من الغنم، وبذلك سوف لن تجد الحكومة المركزية صعوبة في المحافظة على سلطتها، إنه شعب عاطل ومهمل[٥٢]، يعمل حوالي (٣) أيام من الأسبوع ويقضون بقية الأسبوع بالقيل والقال في المقاهي أو في الفراغ بالتجول على أسوار المدينة، ورجال الموصل هم دائماً لديهم استعداد أو نزوع[٥٣] للأذى أو الضرر وأكثر ما يكون هذا عند توقع حدوث السلب والنهب، تجدهم ينهمكون فيه بدون تحسبٍ وتخوفٍ من الكثير من النتائج، إن موقفهم في جميع المناسبات المذكورة يعتمد دائماً على التقدير العنيف لقوة الأحزاب والنتائج المحتملة لأفعالهم على أنفسهم، وإذا كانت اللحظة الحالية خطيرة فالسبب في ذلك هو قدوم ثلاثة ولاة ضعفاء[٥٤] في السنوات الخمسة الأخيرة خضعوا للمكائد المحلية

ورغم أن الاضطرابات الأخيرة كانت على نطاق واسع فإن شهراً انقضى بدون أي علامة حياة من الإدراك المبهم للسلطة في اسطنبول.

إن مجموع النصارى في الموصل محتمل أن يزيد على (٩٠٠٠) نسمة موزعين على الطوائف الآتية: "كلدان كاثوليك، سريان كاثوليك، يعاقبة أو سريان قدماء والقليل جدا من الأرمن والبروتستانت واليونان"[٥٥].

لقد كانت الأقلية المهمة هي الكلدان الكاثوليك، وهم نساطرة في الأصل، انشقوا من كنيستهم القديمة ويعترفون بسيادة البابا لمائتي سنة مضت، وهذه الحركة باتجاه روما بين الكنائس الشرقية القديمة المستقلة قد استمرت وعلى نحو متقطع منذ ذلك الحين، وبُذِلت جهود كبيرة من قبل المبشرين الدومينيكان في بلاد ما بين النهرين لرعاية هذه الحركة، إن الزعيم الروحي لكل الكلدان الكاثوليك (في فارس وتركيا) هو البطريرك عمانوئيل[٥٦]"Emanuel" المقيم في الموصل وأفرادهم في المدينة يقدرون بحوالي (٣٠٠٠)[٥٧] نسمة ولديهم سبعة كنائس واثنتا عشر قس وأربعة مدارس يدرس فيها حوالي (٣٥٠) تلميذ، والبقية من أطفال هذه الطائفة يدرسون في مدارس الآباء الدومينيكان[٥٨]، وعدد هذه الأقلية [أي السريان الكاثوليك] في الموصل حوالي (٢٥٠٠) نسمة[٥٩]، وهم بالأصل يعاقبة تحت النفوذ الفرنسي، انشقوا من كنيستهم القديمة ويعترفون بروما، يقيم بطريركهم في حلب وفي الموصل لديهم أبرشية، وثلاث مدارس، وخمسة عشر قس.

أما إرسالية الرومان الكاثوليك فقد تأسست هنا من قِبَل الآباء الكبوشيين[٦٠] في القرن السابع عشر[٦١] وقد حافظوا عليها باستمرار منذ ذلك الحين وهي الآن في يد (١٣) من الآباء الدومينيكان[٦٢] وعددٍ كبيرٍ من الراهبات، لديهم كنيسة ممتازة ومدارس تستحق الإعجاب تعطي دروسها المجانية لأكثر من ألف تلميذ[٦٣].

والبابا ممثل في بلاد ما بين النهرين بمندوب هو "Monseigneur Drure" المقيم في الموصل، والتمويل الذي يعيل المندوب لهذا الغرض تدفعه سيدة

فرنسية لمدة أكثر من قرنين مضت على شرط أن يكون ممثل البابا دائماً رجل فرنسي[٦٤].

إن السريان القدماء أو اليعاقبة يمثلون واحدة من الكنائس الشرقية القديمة والممتعة وعلى الرغم من الاضطهاد والجوع النسبي حافظوا وبشجاعة على استقلالهم لمدة ستة عشر قرناً ورفضوا بصمود التضحية بقناعاتهم وحريتهم مقابل عرض فوائد من روما التي اشتملت على دفع رواتب قسسهم وأساقفتهم والتعليم المجاني لأطفالهم والحماية الدائمة لمصالحهم من قِبَل الحكومة الفرنسية[٦٥]، وهذا الموقف المستقيم هو أكثر جدارةً بالملاحظة في جالية صغيرة نسبياً، إن المبدأ العقائدي المميز للكنيسة اليعقوبية هي وحدانية طبيعة السيد المسيح، وزعيمهم هو البطريرك اغناطيوس "Ignatius" الذي كان له الشرف مؤخراً أن استقبله صاحب الجلالة ملك بريطانيا وهو يقيم في دير زيفوران "Zeforan" قرب ماردين، هناك آلاف من اليعاقبة في الهند، وفي الموصل عددهم حوالي (٣٠٠٠) نسمة ولديهم أربع كنائس في المدينة وأربعة قسس وثلاث مدارس يدرس فيها حوالي (٢٠٠) تلميذ، والبقية يدرسون في مدرسة الإرسالية الانكليزية[٦٦].

إن جمعية كنيسة التبشير[٦٧] حافظت على مدرسة يدرس فيها حوالي (٢٠٠) تلميذ من البروتستانت واليعاقبة والقليل من المسلمين والفرع الأهم لعملها على أية حال في التبشير الطبي[٦٨]، وهذا الجانب لحد الآن لم يوضع على أسس دائمة فالغياب المطول للطبيب المدير منذ خريف ١٩٠٧ من الطبيعي أن يعيق التقدم، وخلال عمل عامين قبل مغادرته إلى لندن بدأت هذه الإرسالية تنال احترام وثناء كل طبقات الشعب، ومن المبالغ فيه وضع أهمية كبيرة جداً على العمل الطبي في هذه الظروف كما هو موجود في الموصل، وعند التذكر أنه في الوقت الحاضر لا يوجد طبيب أوربي في المنطقة وإلى بغداد التي فيها أطباء، إلا أن ستة عشر يوماً من السفر المرهق ذهاباً

وإياباً كافية لفهم سبب الحماسة لعودة الدكتور الانكليزي وتأسيس مستشفاه المرتقب[٦٩].

أما الأرمن في الموصل يبلغ عددهم حوالي أربعين عائلة: (٢٧) عائلة منهم بروتستانت، ومن سبعة إلى ثمانية عوائل هم من الأرثوذكس اليونان ، ولكل جماعة كنيستها الخاصة بها.

بالرغم من الفضل لجهود البعثات التبشيرية الفرنسية والانكليزية[٧٠] في أنهم مكّنوا المسيحيين من إجراء بعض التقدم، إلا أنهم للأسف بقوا متخلفين وهذا ربما يعود جزئياً إلى حالة التبعية التامة للطبقة المغلقة التي يعيشون فيها وإلى العيوب المتأصلة التي شاطروها مع زملائهم في المواطنة من المسلمين، فمساكنهم فقيرة بائسة وحالة نسائهم أفضل بقليل من نساء المسلمين، ولا تستطيع المرأة المسيحية أو تجرؤ أن تعبر الشارع بدون أن تغطي وجهها، ويتناولن وجباتهن الغذائية بمعزلٍ عن أزواجهن، ويعد من الخزي عليهن الظهور علناً مع أزواجهن، وكان الرجال النصارى يتزوجون في عمر ثلاثين سنة، أما البنات فيتزوجن في عمر من ١٢ إلى ١٣ عشر سنة، وباختصار في معظم الحالات تتشابه وإلى حدٍ بعيد عادات النصارى والمسلمين في الموصل[٧١].

وأخيراً فيما يخص الجالية اليهودية[٧٢] فإنها أقدم جالية في الموصل إذ أن وجودها متواصل منذ الأسر البابلي، وتقريباً قبل سنة أسست جمعية الاليانس الإسرائيلية[٧٣] إرسالية لها تحت إدارة المدير القدير"Monsieur Maurice Sidi " وقد واجه تأسيس الإرسالية في البداية معارضة من قِبَل الوالي السابق مصطفى بك[٧٤] ولكن موقفها تحسن وعلى ما يبدو قد تم الاعتراف بها رسمياً، وهي الآن تعمل بجد في حي من المدينة (حي اليهود- حي الفاروق حالياً) الذي كان ربما في حاجة ماسة جداً إلى مساعدة تنوير الأذهان أكثر من غيره من الأحياء في الموصل، وقيل إن الموافقة على عملية التأسيس كانت صفقة كبيرة.

الخاتمة:

اجد من الضرورة عدم الركود الى مثل تلك التقارير والتعامل معها بحذر شديد خشية الوقوع بالخطأ وتعاقب الاعتماد على مضامينها باحث بعد آخر، فما يكتبه القناصل ونوابهم والدبلوماسيون وسواهم، هي لاتمثل قطعاً كل الحقائق، وهي ليست بمنأى عن وجود النقص والخلل في جوانبها المتعددة. وليست بالضرورة تتسم بالحيادية والدقة، بل هناك عوامل عدة تتظافر في تشكيل الحدث ووصفه من قبل هؤلاء، كما انها تعكس طبيعة كاتبها، فالكاتب يونك لم يكن شخصية تتسم بالمهنية العالية في تأدية مهامها، فهو سنة ١٩٠٩ قد اقحم نفسه بمشاكل النساطرة والكلدان والمماحكات التي جرت بينهما عندما حاول النساطرة التخلص من سيطرة البطريرك الكلداني على مقدراتهم، وسمحت السلطات العثمانية بتسجيلهم كنساطرة فتم اتهامهم بالهرطقة، وانحرف (يونك) في هذه القضية ووقف الى جانب الكلدان على الرغم من تحذير الحكومة البريطانية له بعدم (حشر نفسه في امور داخلية) كما اشارت الى ذلك (شيلدز ، ص٦٤).

ويستفاد من ذلك بانه شخصية محرضة ولايعلم ابعاد حدود عمله الحكومي او الدبلوماسي، وهو يميل الى مذهب دون غيره من مذاهب النصارى، واستعداده للتدخل في الشؤون الداخلية للملل، ولذلك فان ماسطّره هو جزء من التناقضات التي يحملها والتعصب الذي يسيطر على سلوكه، وانعكس على كتاباته التي تدحضها الحقائق التاريخية وطبيعة النسيج الاجتماعي، لكل المكونات في مدينة الموصل وبشكل خاص المسلمين والنصارى وحتى اليهود، كما مر بنا.

هوامش البحث:

(١) وقع العراق تحت السيطرة العثمانية ابتداءاً من سنة ١٥١٤م بدخول الموصل في حوزتها ثم فرض السيطرة على عموم العراق سنة ١٥٣٤، كما سيطر الفرس على بغداد سنة ١٦٢٣ وبقي الصراع بين القوتين سجال. للتفاصيل انظر: سيار الجميل، حصار الموصل، (الموصل ، ١٩٩٠) ص ٩٣.

(٢) تعرضت الموصل الى موجة من الكوارث الطبيعية المدمرة التي تركت آثارها على المجتمع في النواحي الاقتصادية والاجتماعية، فيذكر ياسين العمري في حوادث سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م ان الموصل تأثرت بموجة برد أتلفت زروع ٣٦ قرية، وهطلت الأمطار بعد مضي شهر واحد من فصل الصيف، وأفسدت الزروع ثم وقع الحريق في قرية النمرود واحترقت زروع بذرة ١٢٠ طغاراً، فأدت الى نقص في الغلال، وغلت بعض الاسعار. وفي ذات السنة، جاء الجراد النجدي الى الموصل واكل اغلب الحنطة والشعير ثم اكل القطن المزروع ثم زرعوه ثانية، فلما نبت اكله الجراد مرة ثانية اواخر حزيران وغلت الاسعار، وفي سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م، وقع برد عظيم غربي الموصل فكان سمكه نصف ذراع، واشتد البرد وبقي الثلج على الارض ثمانية ايام. أتلف زروع ٧٠ قرية، للمزيد انظر: ياسين افندي ابن خير الله الخطيب العمري، غرائب الاثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر (الموصل، ١٩٤٠) ص ص ٣٩-٤١.

(٣) انها ليست المرة الاولى التي يفد الى الموصل رحالة او مبشر، ويتعامل بروح التعالي والغطرسة مع ابنائها، فعلى الرغم مما عرف عن الاباء الدومنيكان، مثلاً: هدوء الطبع واتباعهم الوسائل السلمية في العمل التبشيري، غير ان بعضهم اظهر روحاً متعالية. فقد كتب القنصل الفرنسي، (دي فوصيل) في الموصل سنة ١٨٥٧ يصف سلوك احد المبشرين بقوله: "هو يحمل روحية كارهة، وهو استفزازي بشكل عجيب وهو مسلح دائماً بالدسائس والاحاييل والخداع، وهو لايستطيع ان يغفر للاتراك كونهم مسلمين، وهو يخلف وعوده مع الناس اجمعين، وهو يحرضنا على السلطة ويحرض السلطة علينا ويدعنا يموج بعضنا ببعض، وقد يدفعنا الى خوض معارك جدلية شائكة مع هذه السلطة، وقد يثير السلطة بغتة عندما يوشك الطرفان ان يلتقيا في بعض النقاط ويتصالحا، انظر عنه، ذنون الطائي، "الآباء الدومنيكان وفعالياتهم الطبية في الموصل"، مجلة أوراق موصلية، العدد (٣) ٢٠٠٢، ص١٠٩.

(٤) لا اعلم لماذا استخدم مترجم المقال، اصطلاح (الغموض) على فترة أواخر العهد العثماني، فمن المعروف بأن آخر معقل للعثمانيين كان في الموصل، في السنة الأخيرة للحرب العالمية الأولى ١٩١٨، إذ أن القوات البريطانية بعد احتلالها للبصرة سنة ١٩١٤ ثم بغداد

سنة ١٩١٧، تقدمت صوب الموصل، وتمركزت عند الشرقاط بعد إعلان انتهاء الحرب. ثم تقدمت في ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨ واحتلتها، انظر: محمد طاهر العمري، تاريخ مقدرات العراق السياسية، ج١، (الموصل، ١٩٢٤) ص ص ١٥٢-١٥٣.

(٥) يقصد بالانقلاب الذي تزعمته جمعية الاتحاد والترقي، التي أسست سنة ١٨٨٩ في الأستانة، من قبل الشبان الأتراك الذي أدركوا أهمية إصلاح البلاد، وانخرط فيها عدد كبير من أرباب الفكر والثقافة، ومن العرب مثلاً عزيز علي المصري (مصر) ومحمود شوكت (العراق) وغيرهم، وقد توصلت الى إعلان الدستور في ٢٣ تموز ١٩٠٨، والذي عرف (بالانقلاب العثماني) على السلطان عبد الحميد الثاني. وبعد مضي تسعة شهور وتحديداً في ١٣ نيسان ١٩٠٩. حدثت ثورة مضادة قامت بها (الجمعية المحمدية)التي تؤيد السلطان،غير ان رجال جمعية الاتحاد والترقي، قضوا عليها وراح ضحية المواجهات المئات من الرجال، وقد أسس فرع للجمعية في الموصل سنة ١٩٠٩ وفتحت مدرسة باسمها برئاسة احمد عزت اغا قاسم اغا، انظر: ماكتبه، عبد المنعم الغلامي، اسرار الكفاح الوطني، ج٢، (بغداد، ١٩٦٨) ص١٩؛ عبد الجبار حسن الجبوري، الاحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي، ١٩٠٨-١٩٥٨ (بغداد، ١٩٧٧) ص ص ١٧-٢٠.

(٦) قضية مقتل الشيخ سعيد البرزنجي معروفة الاسباب في مدينة الموصل، وما ذكره التقرير، هو تشويه للحقائق ومحاولة رسم صورة للمجتمع الموصلي على انه همجي ويتكون من مجموعة من (القتلة) متلبدي المشاعر، كما ان شخصية ابو جاسم لر هي ليست شخصية همجية كما يزعم، بل من الشخصيات الوطنية، الذي عارض قيام الوالي محمد باشا اينجه بيرقدار سنة ١٨٣٤ بالقيام بالتعداد السكاني، خشية دخول البيوت الموصلية والنظر الى النساء! هنا الموضوع يتعلق بالنخوة والشهامة، ويمكن إيجاز قضية مقتل الشيخ سعيد البرزنجي، فهو احد الزعامات الدينية في السليمانية، وله مكانته لدى السلطات العثمانية، وزار العاصمة العثمانية، وأقطع عدد من الأراضي الزراعية في السليمانية، وعند قيام الانقلاب العثماني وفتح فرع لجمعية الاتحاد والترقي في السليمانية، عارضها واعلن العصيان عليها. فاستدعته السلطات في مركز ولاية الموصل ليكون تحت مراقبتها، ونزل عند محمد باشا الصابونجي مع ولديه. وكان أعضاء الجمعية يتحينون الفرصة للإيقاع به،

وفي ١٠ كانون الثاني ١٩٠٩، اعتدى احد رجال الجنود الخيالة الأكراد على امرأة في منطقة باب الطوب أمام أعين الناس، فأخذت تصرخ وتستنجد بالأهالي، فتطور الموقف، واستدعي الشيخ سعيد من قبل وكيل الوالي الى السراي، وأثناء دخوله سراي الحكومة، تقدم احد المتظاهرين على الشيخ سعيد وضربه بحجر كبيرة على رأسه فأرداه قتيلاً. للمزيد من التفاصيل راجع: عبد المنعم الغلامي، الضحايا الثلاث (الموصل، ١٩٥٥) ص ص ٦-١٩؛ للاستزادة اكثر، انظر: طالب عبد النبي جار الله صقلاوي الجبوري، سياسة الاتحاديين تجاه الولايات العراقية ١٩٠٨-١٩١٨، اطروحة دكتوراه (غير منشورة) كلية الاداب، جامعة الموصل، ٢٠١٣، ص ص ٨٣-٨٦.

(٧) الصحيح قول تلك الثورة.

(٨) الموضوع هنا يتعلق بما أصطلح عليه لدى المؤرخين بمشكلة الموصل، التي ظهرت إثر الأعمال الحربية إبان الحرب العالمية الأولى وتوقيع معاهدة مودروس سنة ١٩١٨. وقد نص الميثاق الوطني التركي على دمج ولاية الموصل إلى حدود جبل حمرين شرقي دجلة وإلى الفتحة غربي دجلة ضمن الدولة التركية ، وبقيت القضية معلقة حتى تأسيس الدولة العراقية. وبعد محاولات عديدة وافقت الحكومة التركية بتحكيم عصبة الأمم التي قررت في ٣٠ أيلول ١٩٢٤ ، إرسال لجنة برئاسة (يونك) لدراسة المشكلة من جميع جوانبها وبعد الإطلاع على خلاصة الحجج السياسية والإقتصادية والقومية والجغرافية والتأريخية وقيام اللجنة بإستقصاء آراء الأهالي في بغداد والموصل والمناطق الشمالية ، رفعت تقريرها إلى عصبة الأمم التي أصدرت قرارها بإبقاء الموصل ضمن حدود دولة العراق بشرط إبقاء العراق خاضعاً للإنتداب البريطاني مدة (٢٥) سنة. وعليه وضعت معاهدة في ١٣ كانون الثاني ١٩٢٦ بين العراق وبريطانيا جعلت بموجبها مدة المعاهدة (٢٥) سنة، كما عقدت معاهدة ثلاثية في أنقرة بين العراق وتركيا وبريطانيا سنة ١٩٢٦ تم بموجبها تثبيت الحدود بين العراق وتركيا وبذلك طويت صفحة الحدود بين الدولتين الجارتين. ولعب النفط دوراً حاسماً في الإبقاء على منطقة الموصل ضمن الإطار العراقي ، ففي الوقت الذي كانت لجنة الإستقصاء تجوب مناطق العراق كانت المفاوضات جارية بين العراق وبريطانيا للحصول على إمتياز شركة النفط التركية في منطقتي الموصل وبغداد في ١٤ آذار ١٩٢٥،

أنظر: ذنون الطائي، الأوضاع الإدارية في الموصل خلال العهد الملكي ١٩٢١-١٩٥٨ (الموصل، ٢٠٠٨)، ص ص ١٢٨-١٢٩.

(٩) تريبيزوند: المترجم قام بترجمتها حرفياً، وفي الحقيقة فإن الاسم الشائع لها هو (طرابزون) وهي مدينة تركية تقع شمال شرقي تركيا على ساحل البحر الاسود، حالياً مركز محافظة طرابزون، يبلغ تعداد سكانها حوالي ٢١٤,٩٤٩ ألف نسمة، ويعود تاريخها الى القرن ٨ ق. م. Wikipedia.org/wiki

(١٠) لا ادري كيف فسر وربط طول المسافة التي تربط بين اقرب مدن الدولة العثمانية، وتطور ولاية الموصل ومدنها، فهل يا ترى هذا هو العامل الأساس في نشأة وتطور المدن العربية، في المجالات كافة؟، وقد غيب دور وإرادة الإنسان واثر مدينة الموصل العلمي والثقافي والحضاري، ودور علمائها وأبنائها في النمو والتطور. كما ان نمو المدن يتم بتأثير متغيرات ثلاث، هي النمو الطبيعي للسكان عندما تكون الموازنة لصالح الولادات وبتأثير الحراك السكاني الأفقي من مناطق الأرياف الى المدن (الهجرة)، والعامل الاخر هو (الاسر الحضاري) او عمليات الضم، عندما تقوم الأنهار الكبيرة بأسر مياه الانهار الاصغر لتكون فضاءاً اوسع ولتكون عامل جذب سكاني، للمزيد حول نمو المدن الكبرى، انظر، صلاح الجنابي، "الاسر الحضاري، سمة معاصرة للمدن الكبرى- مدينة الموصل انموذجاً"، مجلة موصليات، العدد (٣١)، آب ٢٠١٠، ص ص ١٨-٢١.

(١١) تساوي تقريباً ٤٩ درجة مئوية.

(١٢) من المفيد هنا الإشارة الى العمارة الموصلية ومواد بناء البيت الموصلي، من المعروف ان المجتمع الموصلي محافظاً في طبيعته، وقد انعكس ذلك على التركيب الداخلي لبناء البيت الموصلي الذي استخدم في بنائه مادة الجص والحجارة الى جانب الحلان الأزرق والأبيض. وعليه فان البيت الموصلي مبنيٌ بشكل يحول دون رؤية ما بداخله من الخارج او عند فتح باب (الحوش)، الذي يفضي الى صحن الدار، وغالباً ما يحيط به رواق من طابقين مدعم بالأساطين المدورة من المرمر الأزرق، كما تبلط الأرضية بالمادة نفسها، ويضم الدار ايواناً يستخدم في الصيف للقيلولة ظهراً، وفي الشتاء لخزن المواد الغذائية، ولا تخلو الغرف من الشبابيك المطلة على (الحوش) او الفتحات العليا على الخارج من اجل

التهوية ودخول أشعة الشمس، ومع ذلك فهي حارة في الصيف باردة في الشتاء. للتفاصيل اكثر، انظر:سعيد الديوه جي "البيت الموصلي، مجلة التراث الشعبي، العـدد (٦) ١٩٧٥، ص ٣٨.

(١٣) من الثابت ان درجة الحرارة في مدينة الموصل خلال شهر آب قـد تتجـاوز (٤٩-٥٠) درجة مئوية وهي كفيلة بتفقيس البيض اذا كان ملقحاً ويمكن ان يفسد ايضاً اذا ترك عدة ايام في غرفة المنزل.

(١٤) اشتهرت مدينة الموصل منذ القدم بكثرة البساتين فيها، وبخاصة اشجار الفستق والتوث والحمضيات وذلك لان اجواء الموصل تساعد على نمو تلك الاشجار فيها، ويندر ان تزرع اشجار النخيل فيها، كون الاخيرة تحتاج الى اجواء حارة كما في البصرة، غير متوفرة في مدينة الموصل. (باستثناء فصل الصيف).

(١٥) يقصد الكاتب بالأطباء الأوربيين، هم (الآباء الدومنيكان)، الذين وفدوا إلى الموصل منـذ سنة ١٦٣٦م (الايطاليون ثم الفرنسيون) لإغراض تبشيرية والدعوة للكثلكة، وقد اتبعـوا أساليب شتى للتقرب إلى الناس منها، الخدمات الطبية واشـتهر مـنهم، الأب فرنـسيس توريانى، والأب كوديليوتشني والأب هياسنت بيسون، الذين عالجوا الحكـام الجليليـين، وعادوا مرضى المدينة في منازلهم. للتفاصيل انظر: بطرس نـصري الكلـداني: ذخيـرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، المجلد الأول (الموصـل، ١٩٠٥)، ص ١٩٦.

(١٦) هذا القول يجانب الحقيقة تماماً، ويغمط أعمال رؤوساء البلدية، التي تعـد مـن أقـدم المؤسسات الخدمية في الموصل، إذ أسست سنة ١٨٦٩، وتعاقب على رئاستها حتى سنة ١٩٢٢ بعد تأسيس الحكم الوطني خمسة عشر رئيساً. وقد اضطلع هؤلاء بـأدوار مهمـة على صعيد الخدمات العامة، ويعد حسن زيور العمري، الذي ترأسها من الفترة (١٨٨٧-١٨٩٢) من ابرز رؤساء البلدية وقد شهدت فترته الأولى تنفيذ العديد من الخدمات منها: هدم باب الجسر وتوسيعه، تأسيس شركة للنقل داخل المدينة بواسطة العربات، فتح شارع من باب البيض إلى دائرة الحكومة وتشجيره، توزيع أقسام البلدية الـى قطاعـات داخـل المدينة، فتح معرض وغرفة للمطالعة متاحة لجميع القرّاء، تأسيس دار الضيافة (مـسافر

خانة)، جلب الحنطة من خارج الموصل لتخفيض الأسعار، تنظيف الطرق والأسواق يومياً، تصنيف البائعين، تحويل محل المجزرة، إبعاد المواخير وحانات الخمر عن البلدة، رصف الطرق على وفق طريقة جديدة غير طريقة (القالديوم) أي الحجارة المكسرة (القلق)، وقيام البلدية ايضاً بإعانة الفقراء وتسفير الغرباء منهم الى بلادهم، وفتح محل لإيواء الفقراء والمرضى، تنظيم صحة البلدية ودائرة الهندسة. وهناك رؤوساء آخرين لهم خدماتهم التي قدمت إلى أهالي مدينة الموصل. وبخاصة سعيد قاسم السعرتي (١٩٠٨-١٩١٢) وأمين المفتي (١٩١٣-١٩١٨). للتفاصيل الموسعة، راجع ما كتبه، خير الدين العمري، أولاد عاصم بن عمر بن الخطاب (مخطوط) بحوزة عائلته، الورقة ٢١-٢٢.

(١٧) هذه مبالغات غير مبررة ولا منطقية، إن انتشار الجثث في مدينة الموصل كان في مجاعة سنة ١٩١٧، ولم تصل الحال الى أن تداس تحت الأقدام، لان عمال البلدية كانوا يسرعون في حملها ودفنها في المقابر استناداً الى (إكرام الميت دفنه). انظر ما كتبه بهذا الصدد، دومنيكو لانزا، الموصل في الجيل الثامن عشر، ترجمة روفائيل بيداويد (الموصل، ١٩٥٣) ص١١. وسبقها سنة ١٩١٠ انتشار مرض حمى التيفوئيد حيث بلغ عدد المصابين بها (١٦٤) توفي منهم (٢٣) انظر: حنا خياط، لمحة اختباريه وفنية الحمى التيفوئيدية (الموصل، ١٩١١) ص ٤٣.

(١٨) كان السقاؤون ينقلون الماء من نهر دجلة جنوب المدينة الى البيوت، ويستعمل للشرب والطبخ، اما الغسل والتنظيف فيكون من ماء البئر، ويحمل الماء من قبل السقا بواسطة (الجرب) وهو جلد الحيوان بعد دباغته ويسكب الماء في (المزملي) وهي حجر حلان اسمر مستطيلة الشكل بحجم يقدر بمتر وعرض اكثر من نصف المتر. وبارتفاع ٦٠ سم محفوفة ومجوفة على هيئة صندوق تغطى بغطاء مرمري، وفي حافة أسفلها فتحة صغيرة تسد بواسطة خشبة تسحب عند الحاجة للماء. للتفاصيل الموسعة عن السقا، يراجع سعيد الديوه جي، "السقا في الموصل"، مجلة التراث الشعبي، العدد (٣) ١٩٦٩، ص ٢٥ وما بعدها.

(١٩) لم يكن هناك اهتمام بالصحة في الموصل قبل احتلال الانكليز لمدينة الموصل سنة ١٩١٨ إذ اهتمت السلطات البريطانية المحتلة بالأوضاع الصحية في الموصل منذ سنة ١٩١٨،

فاستبدلت دائرة الصحة العثمانية بدائرة صحة ارتبطت بالبلدية، وقامت بتوسيع مستشفى الهلال الاحمر وأصبح مستشفاً فيه قاعات للرجال وأخرى للنساء، وعين حنا خياط مديراً لها مع مجموعة من الاطباء الانكليز وعدد من الراهبات الانكليز والارمن، كما فتحت المستوصفات في كل أقضية الموصل. انظر: عبد المنعم الغلامي، "التشكيلات الحكومية في الموصل زمن الاحتلال البريطاني"، مجلة المعرفة، العدد (٣٨)، آب ١٩٦٢، ص ٢٧.

(٢٠) من الاخطاء الشائعة التي يتداولها الناس والكتاب، هي تسمية مدينة الموصل بالحدباء، بسبب احتداب مئذنة الجامع النوري، وهذا غير صحيح، فان سبب التسمية جاء لاحتداب نهر دجلة عند دخوله مدينة الموصل وجعلها نصفين الجانب الايمن والجانب الايسر.

(٢١) سور الموصل قديم يعود الى زمن الدولة الاموية، وقد جرت عليه تحديثات عدة، وبخاصة زمن الدولة العثمانية، كما زيدت ابوابه من ستة الى ثلاثة عشر باباً، ويعد السور حصناً منيعاً للمدينة في صد هجمات الاعداء الطامعين، للتفاصيل عنه، انظر، سعيد الديوه جي، بحث في تراث الموصل (الموصل، ١٩٨٢) ص ص ٣١-٣٣.

(٢٢) الاغارة على المدن من قبل الاخرين واردة في ظل تلك الظروف القاسية التي كان يعاني منها البدو والقبائل الرحل.

(٢٣) ان الانطباع الذي تشكل لدى الكاتب عن الاوضاع العمرانية، هو بلاشك خاطئ. فقد ذكر مثلاً الرحالة هود والذي زار الموصل مطلع القرن التاسع عشر عن الاسهامات العمارية للجوامع بأنها بديعة وهي اجمل ما رأيته في هذا المضمار، فان واجهتها هي من المرمر وهي لطيفة ونظيفة. للاستزادة عن انطباعات الرحالة الاجانب يراجع ما كتبه سهيل قاشا، الموصل في مذكرات الرحالة الاجانب خلال الحكم العثماني (بيروت، ٢٠٠٩) ص٧٠.

(٢٤) اختلف الكتّاب في ذكر عدد المحلات السكنية خلال القرن التاسع عشر مابين ٣١-٣٨ محلة، والسبب في ذلك، ضم اكثر من محلة وعدها محلة واحدة. فقد احصى مثلاً الالماني Pitt emdsterki سنة ١٩١٧ عدد المحلات السكنية فوجدها (٣١) محلة ما عدا محلة عمر المولى (الشيخ عمر)، انظر داؤد سليم عجاج "خطط مدينة الموصل منذ مطلع القرن العشرين" موسوعة الموصل الحضارية، مج ٥، (الموصل، ١٩٩٢)، ص٢٤٥.

(٢٥) الاسرة الموصلية كما هي في الشرق، اسرة نووية، ذات قدرة عالية في ضبط وتوجيه ابنائها، وهي حريصة في نقل المنظومة القيمية بتفاصيلها، مما يضفي عليها تسمية (اسرة موصلية ملتزمة)، وهي حريصة على التمسك بتلك المنظومة القائمة، على الجد والصدق والوفاء بالعهود، واحترام الجيرة والشخص الكبير واغاثة الملهوف، ومعاونة الآخرين والمشاركة في الاحزان والافراح، وعدم الاعتداء على الجيران، فضلاً عن التآلف والتآزر وسيادة الاحترام المتبادل بين افراد الاسرة الواحدة.انظر: احمد الصوفي، خطط الموصل، ج٢ (الموصل، ١٩٥٣) ص ص ٩-٢٩؛ خليل محمد الخالدي، خصائص المجتمع الموصلي، دراسة اجتماعية ميدانية (الموصل، ٢٠٠٦) ص ص ٢٤-٢٧.

(٢٦) لا اعلم عن اية متاريس وضعت واية اسلحة نصبت، وكأن الموصل تعيش في القرون الوسطى التي سادت اوربا. في حقيقة الامر ان الموصل قد شهدت مايعرف (بالدكش) وهو شجار يحدث بين شخصين او اكثر، ويتطور الى عراك بين محلتين، ويتقاذفون بالحجارة او (الصبّان) ويرافق ذلك بعض الاهازيج مثل (عل الدكش دكش دكش واحنا محلة باب لكش)، ويجاوبهم الفريق الآخر (عالهوبة الهوبة الهوبة واحنا محلة الجوبة) عندما ينشب القتال بين محلتي باب لكش والجوبة مثلاً، ثم يتدخل العقلاء ليصلحوا ذات البين.

(٢٧) تحدّث الكاتب عن ان الضغائن العائلية هي امر شائع؟! وقد جزم بذلك وهذا يجانب الحقيقة، كون كلامه ينطلق من نظرة ضيقة لطبيعة الود القائم بين افراد العائلة، فضلاً عن التعميم في كلامه على كل العوائل.

(٢٨) لا يمكن الركون الى العدد القليل الذي اورده الكاتب، بالنسبة لمدينة كبيرة كالموصل، ففي سنة ١٩٠٧ بلغ عدد سكان مدينة الموصل ١٤٨١٦٢ كما اوردته سارة شيلدز، في حين يذكر الميجر سون الذي زار الموصل سنة ١٩٠٧ ان تعداد سكانها يربو عن (٩٠) تسعين الف نسمة وعلى الرغم من تباين هذه الارقام غير انها في كل الاحوال اكثر من (١٠) الاف نسمة الرقم الذي اورده الكاتب، انظر: سارة شيلدز، الموصل قبل الحكم الوطني في العراق، (الموصل، ٢٠٠٨)، ص٨٥؛ الميجر سون، رحلة متنكر الى بلاد مابين النهرين وكردستان، ترجمة فؤاد جميل، ج١، ط١ (بغداد، ١٩٧٠)، ص١٢٣.

(٢٩) أخطأ الكاتب بجزمه عدم وجود تعليم حقيقي لدى المسلمين، وان الجهل ساد في الموصل وأخطأ الكاتب كثيراً حين عدّ رجلاً واحداً هو داؤد الجلبي، قد زار اوربا، وفي حقيقة الامر تغافل او جهل ان هناك حشد من الموصليين (مسلمين و مسيحيين) المستنيرين زاروا دولاً في اوربا وتلقوا تعليمهم فيها وبخاصة (ايطاليا وانكلترا وفرنسا) ثم تركيا. حتى اواخر القرن التاسع عشر، وبرز علماء وادباء ومؤرخين واطباء، ونذكر منهم: افرام رحماني الذي زار اوربا خلال الفترة (١٨٦٩-١٩٠٩) احدى عشرة مرة وله معرفة باللغات السريانية واللاتينية والايطالية والفرنسية والانكليزية وغيرها. وممن زار اسطنبول المفتي محمد حبيب العبيدي، وخير الدين العمري وسافر الى روما يونان عبو اليونان صاحب الطروحات الليبرالية، وتخرج في الجامعة الفرنسية الطبيب حنا خياط سنة ١٩٠٣ وانتخب عضواً في الجمعية الطبية والجراحية في بروكسل سنة ١٩٠٨، كما التحق ثابت عبد النور بالمدارس العليا في العاصمة العثمانية اوائل القرن العشرين. وكذلك محمد شريف الفاروقي وهناك غيرهم الكثير. وسبقهم من زار الامريكيتين سائحاً، للتفاصيل انظر: ذنون الطائي، رواد النهضة الفكرية في الموصل (الموصل، ٢٠٠٩).

(٣٠) عبد الجليل هو عميد الاسرة الجليلية في الموصل، كان تاجراً نصرانياً ثم اسلم، وقد وفد الى الموصل من منطقة ديار بكر في حدود سنة ١٦٠٠م، وتمكنوا من امتلاك عدد من القرى في قرية كرمليس وشاقولي وغيرها، وان يحرزوا موقعاً اجتماعياً ارستقراطياً واقتصادياً ثم سياسياً بارزاً، وحكموا الموصل خلال الفترة (١٧٢٦-١٨٣٤) التي سميت بفترة الحكم الجليلي او الحكم المحلي ومن ابرز ولاتهم الحاج حسين باشا الجليلي. للتفاصيل الموسعة عنهم، انظر: عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في الحكم العثماني، فترة الحكم المحلي ١٧٢٦-١٨٣٤ (النجف، ١٩٧٥)؛ الاب جان موريس فييه الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، ترجمة نجيب قاقو (بغداد، ٢٠٠٠) ص ص ١٤٨-١٤٩.

(٣١) لماذا هذا التعميم على المجتمع الموصلي وبضمنهم الاسرة الجليلية في كل المجتمعات هناك من يتصف بحب المال واكتنازه، هناك مواقف مشهودة للاسرة الجليلية وغيرهم، اثناء المجاعات التي عصفت بالمجتمع الموصلي كطهي الطعام عند باب الجسر وتوزيعه على الناس، وهذا يتناقض مع الجشع وحب المال؟!

(٣٢) تمتاز الملابس الموصلية بجمال الوانها وزيها المحتشم بالنسبة للرجال ام النساء، فالرجال يلبسون الزبون وفوقه الدميري او المقطني والغترة غطاء للرأس في الشتاء، وفي الصيف الزبون وغطاء الرأس وعلماء الريف يلبسون الجبة والزبون والعمائم غطاء للرأس، واللبس حسب الموقع الاجتماعي من حيث النوعية والفصال للقماش، وفي القرى يلبسون الدشداشة والغترة والعقال والدميري. ثم حدث تطور في مطلع القرن العشرين في زي الموظفين (الافندية)، حيث لبسوا السترة والبنطرون (القاط) والفينة الحمراء والطربوش في الرأس ثم بعد تأسيس الحكم الوطني سنة ١٩٢١، ظهرت السدارة بدل الطربوش، ومما يذكر ان الملابس الغربية كانت تثير الاستغراب لدى العامة، للتفاصيل حول الازياء الشعبية، انظر: وليد محمود الجادر، الازياء الشعبية في العراق (بغداد، ١٩٧٩) ص ص ٤٥-٥٥.

(٣٣) وصف المجتمع بأغبى المجتمعات، ومنحط خلقياً، هذا التوصيف لاريب فيه تجني وتحامل وحمق غير مبرر، واعتقد انا شخصياً ان الكاتب من اجهل منّ مر بالموصل والذي لم يتمكن من استيعاب تفاصيل المجتمع الموصلي، وان يرسم صورة حقيقية عنه بسبب قصور يعاني منه وعنجهية مفرطة غير مبررة اطلاقاً. فمجتمعاتهم في القرون الوسطى كانوا لاينفكون عن الاحتراب فيما بينهم لإتفه الاسباب، وقبائل القوط والوندال معروفة وحرب المئة عام بين بريطانيا وفرنسا وغيرها من الممارسات التي تنم عن جهل مطبق عاشته المجتمعات الاوربية آنذاك. ومجتمع الموصل منتج علمياً وفكرياً وثقافياً ومهنياً واقتصادياً، تسوده قيم العرب الاصيلة في التعامل والبيع والشراء.

(٣٤) ان سوء الاوضاع الاقتصادية والادارية التي سادت الموصل منذ اوائل القرن التاسع عشر أدت الى الكوارث الاقتصادية والطبيعية التي حلّت بها، ادت الى زيادة عدد العاطلين عن العمل، ومن عادات الشباب حتى في الفترات اللاحقة التجمهر في محلاتهم وفي المناطق المتعددة من مدينة الموصل لقضاء الوقت، فلا غروة ان نجدهم يتجمعون أمام أبواب المدينة.

(٣٥) اخطأ الكاتب عندما عدّ السيطرة العثمانية احتلالاً، وأخطأ مرة أخرى عندما عدّ سنة ١٦٣٨م تاريخاً للسيطرة العثمانية، فالمصادر التاريخية تشير الى ان السلطان سليم الاول

ضم الموصل سنة ١٥١٤ الى الدولة العثمانية، بعد معركة جالديران وانتصاره على الشاه اسماعيل الصفوي، انظر: عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٤ (بغداد، ١٩٥٤)، ص١٨٣.

(٣٦) عدم وجود طاقة وذكاء لدى سكان الموصل، مسألة فيها نظر، وبخاصة ان الموصل شهدت احتداماً فكرياً منذ منتصف القرن الثامن عشر، ثم ماذا نبرر بروز جمهرة من البلغاء والعلماء والادباء والمؤرخين والاكفاء في القرن التاسع عشر. ونذكر للتمثيل لا الحصر: المؤرخ ياسين الخطيب العمري (ت١٨١٦م) والطبيب محمد الجلبي (ت١٨٦٦م) والخطاط درويش نعمان الذكائي (ت١٨١٢م) ومن مؤسسي المدارس سنة ١٨٧٠ فتحية خاتون وعائشة خاتون من الاسرة الجليلية، ومن الشعراء حسن البزاز (ت١٨٨٧م) ومن العلماء الشيخ علاء الدين الرمضاني (ت١٨٢٨م) ومن القادة الاداريين الاكفاء يحيى باشا الجليلي (ت١٨٣٢م) وغيرهم الكثير، الى جانب انتشار المدارس الملحقة بالجوامع والمساجد، وكثرة المؤلفات والمصنفات المختلفة. للتفاصيل انظر: ذنون الطائي، الاتجاهات الاصلاحية في الموصل في اواخر العهد العثماني حتى تأسيس الحكم الوطني (الموصل، ٢٠٠٩) ص٥٦ وما بعدها. وبهذا الصدد يقول احد الرحالة في وصفه للفرد والمجتمع المسلم هو كامل المزايا "يفكرون ويحلمون كمسلمين حقيقيين"؛ هنري بنديه، رحلة الى كوردستان في بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف حبي (اربيل، ٢٠٠١) ص ص ١٠٤-١٠٥.

(٣٧) لم نفهم المقصود من تعبير (من اصل خاص)، هل هم الذوات من سراة البلد، ام الاداريون والموظفون الحكوميون، القادمون من العاصمة العثمانية؟!

(٣٨) لم يوفق الكاتب في وصف اوضاع النصارى ولا اليهود في الموصل، فالنصارى شكلوا جزءاً مهماً من النسيج الاجتماعي لمجتمع مدينة الموصل، وهناك من الرحالة المنصفين الذين رسموا لنا اوضاعهم بكل دقة، وقال احد الرحالة الذين زاروا الموصل اواخر القرن التاسع عشر: "يتمتع النصارى في الموصل بحرية وهُم بمنجاة من الاضطهاد على الوجه الذي يتمتع به بنو جلدتهم الذين اضطروا الى السكن مع المسلمين، جنباً الى جنب، انهم يردون هذه المزية والحال المستحبة الى ان المسلمين والنصارى عرب في الاحساس

واللغة، وفوق كل شيء هم مرتبطون برابطة التساكن في المدينة". انظر: الميجر سون، المصدر السابق، ص ١٢٤. والامر ينطبق كذلك على اليهود الذين تمتعوا بذات مزايا النصارى في ممارسة اعمالهم وطقوسهم على الرغم من انغلاقهم على انفسهم في محلة اطلق عليها (محلة اليهود) إذ يصف احد الرحالة أوضاعهم بقوله: "ان اليهود في المدينة تمتعوا بحرية تامة في زيارة وخدمة الاولياء والقديسيين في الاماكن التي كانوا يدّعون انها في زمن ما كانت لهم كنائس". انظر: كارستن نيبور، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين الامين، مراجعة سالم الالوسي (بغداد، ١٩٦٥)، ص١٠١.

(٣٩) دلالة على ان الطفل النصراني يتمتع بأدب جم ففسح المجال لغيره.

(٤٠) رما الاصح (رمى).

(٤١) رما الاصح (رمى).

(٤٢) لم يحدث تذمر من قبل اليهود، دلالة على ان الامر عادي، ويحدث مشاكسة احياناً من قبل الاطفال بين الاشقاء، فما بالك في خارج البيت!

(٤٣) قد يكون الانكليزي بالغ في بيع الدواء، والمرأة ضعيفة الحال، وربما تجاوز عليها بالكلام، فهددته! مع العلم بأن الاباء الدومنيكان الفرنسيين هم من عُرفوا بخدماتهم الطبية لأهالي الموصل وليس الانكليز؟! كما سنبين لاحقاً.

(٤٤) لم يوضح ما المقصود (بالعائلة) ويفهم من ذلك احد أشخاصها، وعلى اية حال ففي كل الأعراف والآداب العامة والتقاليد والأخلاق العربية، المرأة تصان ولا يجوز بأي حالٍ من الأحوال مضايقتها من قبل الغرباء، وهذا ينطبق على المسلمين والنصارى واليهود. وما ذكره الكاتب هو تلميح سمج لرسم صورةٍ داكنة وسيئة للعلاقة القائمة بين الطوائف في الموصل، وبشكل خاص تعامل المسلمين مع النصارى وانهم يتعرضون الى التفرقة والتعدي. ومن المؤكد ان الشخص الغريب الذي يضايق امرأة او فتاة ينال عقابه من اهلها! ولكن لايصل حد الموت.

(٤٥) ذكرنا سابقاً ببعض البراهين عدم تعصب المسلمين وتسامحهم مع غيرهم من النصارى واليهود.

(٤٦) قصد محمد الصابونجي الذي برز في الموصل خلال الفترة (١٨٩٥-١٩١١) كشخصية لها نفوذها، بفضل ثروته المالية وتسخيرها لمصالحه، حيث حاز على مكانته الاجتماعية والاقتصادية المرموقة، ويقول عنه احد الكتّاب :"كان احد اسرار نجاحه، سخاؤه في الضيافة وفي الوقت نفسه حصافته فيها، فقد كان عنده بيت مفتوح لكل زائر معروف، عربياً كان ام تركياً ام كردياً، والياً ام قائداً ام سيداً ام زعيماً عشائرياً، وكان يؤمن للمسؤولين الذين يعينون في الموصل كل اثاثهم، واحياناً حتى البيت طيلة مدة وجودهم في المركز، وبهذه الطريقة خلق لنفسه شبكة من الاصدقاء المفيدين في مختلف انحاء الولاية حتى في اسطنبول. للتفاصيل عنه راجع، حنا بطاطو، العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية"الكتاب الاول، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت، ١٩٩٠) ص ص ٣٢٧-٣٢٨.

(٤٧) لو كان هناك فعلاً تعصب في الموصل لما عاش معهم النصارى واليهود، ولنشبت الحروب الاهلية، كما كان يحدث في اوربا ابان القرون الوسطى في جل الدول الاوربية، التاريخ يحدثنا عن الاحترام المتبادل بين الطوائف والقوميات والتزاور بين الشيوخ والرؤساء في المناسبات والاعياد وحتى بين عوام الناس. حتى ان مجلس الشيخ رشيد افندي الخطيب كان يضم قسس، دلالة على التسامح وسيادة روح المحبة بين المسلمين والمسيحيين، انظر عنه، الطائي، رواد النهضة الفكرية، ص٥٦.

اما عن مقتل (شيخ سيد)، فيقصد حادثة مقتل الشيخ سعيد الذي اشرنا اليها في الهامش رقم (٦) ولو كان هناك تعصب فعلاً لما سمح المسلمون للتلاميذ النصارى بالدراسة في مدارسهم. انظر: رؤوف، المصدر السابق، ص ٤٢٣.

(٤٨) واضح جداً بأن الكاتب يكن كرهاً شديداً لأهالي الموصل، بحيث اسبغ عليهم كل نعوتات البذاءة والسب والشتم، ولا اشك بأن روحه كانت كريهة انعكست على طبيعة كتاباته.

(٤٩) ابو جاسم كنية لأسم محمد ويطلقها أهالي الموصل اعتزازاً بالمواقف البطولية والشهامة لصاحبها، وهو يحاول هنا الانتقاص منه ويصفه (بالهمجي) ويبدو ان المعايير لديه مختلفة وقد بينا، أسباب حادثة مقتل الشيخ سعيد.

(٥٠) أخطأ الكاتب في ذكر تاريخ مقتل الشيخ سعيد فكانت في ١٠ كانون الثاني ١٩٠٨ وليس ٦ كانون الثاني، وهذا ما يدلل على عدم دقته في ايراد الوقائع التاريخية وعدم الوثوق بها كونه متحامل.

(٥١) يؤكد الكاتب هنا ضمن تصوراته الخاطئة ان أهالي الموصل المسلمين يتسمون بالجهل وبأنهم وحوش، وهذا التوصيف ينطبق على الذين يعيشون في الغابات ومنقطعين عن العالم الخارجي ومعرفة الناس والقوانين الإنسانية والأعراف والأديان. ولاينطبق على اصحاب القيم والحضارة.

(٥٢) إن كان الشعب عاطل كما يذكر، من اين ظهرت المهن والحرف بالعشرات الى جانب الصناعات التي كانت تزدان بها الاسواق الموصلية العامرة وما تزال بقاياها حتى الآن. ثم يرجع ويناقض نفسه بقوله يعملون (٣) ايام في الاسبوع، أي اعترافه بوجود عمل. على الاقل ٣ ايام في الاسبوع.

(٥٣) لم تحدثنا المصادر الموصلية المحلية عن وجود نوازع الشر والعدوانية في سلوك رجال الموصل، وبشكل مستديم في تعاملهم الاجتماعي اليومي، وعوائل الموصل لاتعرف السلب والنهب بل هم منّ يصون الجار وحرمته وماله ويذودون عنه في حضوره وغيابه، وهم اهل الكرم والوفادة. ربما يحدث السلب والنهب عند حدوث الخلافات بين السكان خارج اسوار المدينة، وسرعان ما يتدخل العقلاء ويتم التصالح بين الاطراف.

(٥٤) في الحقيقة ان جُل الولاة الذين وفدوا الى ولاية الموصل باستثناء البعض وخلال فترة الحكم المركزي، عملوا لمصالحهم، ولم يسعوا الى تطوير الموصل بالنواحي الخدمية، انما كان همهم الاساس جمع الضرائب. اما الولاة الذين تولوا الموصل خلال الفترة (١٩٠٣-١٩٠٨) فهم:

مصطفى يمني بك (١٩٠٣-١٩٠٦)، فريق زكي باشا الحلبي (١٩٠٦)، رشيد بك (١٩٠٦-١٩٠٧)، فاضل باشا الداغستاني (١٩٠٧-١٩٠٨)، طاهر باشا (١٩٠٨)، للاطلاع على جدول ولاة الموصل خلال العهد العثماني، انظر: سليمان صائغ، تاريخ الموصل، ج١ (مصر، ١٩٢٨)، ص ص ٣٢٠-٣٢١.

وللاطلاع على تصرفات بعض الولاة، نورد ما قاله دي فوصيل عن الوالي محمد باشا كريدي (١٨٤٥-١٨٤٦): "هذا الاقليم قد سلم يداً بيد الى لص شقي قاطع طريق حقيقي في شخص هذا الوالي الذي لايتورع عن اقتراف كل الآثام، اذ لاقدسية لشيء في نظره، فلا حرمة لديه لحياة واموال وشرف العوائل والاسر" بيير دي فوصيل، الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤-١٩١٤، ترجمة اكرم فاضل (بغداد، ١٩٦٨)، ص ٨٠.

(٥٥) الكاتب هنا يمثل قمة الجهل بطبيعة واعداد السكان، فقد ذكر سابقاً ان سكان الموصل يصل عدداً الى (١٠,٠٠٠) عشرة الاف نسمة، الهامش (٣٠)، ويعود ويذكر ان عدد نصارى الموص (٩٠٠٠) تسعة الاف نسمة، فهل يعقل هذا!؟ وعلى افتراض ان الذي اورده صحيح، فهل يمثل المسلمون ١٠/١من مجموع السكان وان غالبية السكان هم من النصارى، من جهة اخرى، لم تذكر المصادر المحلية عن وجود (يونانيين) في مدينة الموصل خلال الفترة التي يتحدث عنها وحتى بعدها.

(٥٦) وهو المونسيور عمانوئيل رسام. اكمل دراسته في الموصل ثم اكمل الدرجة العليا سنة ١٩١٤، وتولى رئاسة المعهد الاكليريكي البطريركي في الموصل سنين طويلة وكان من انجح الرؤساء – كما يذكر احد الباحثين- نقل الى الولاية البطريركية في روما ثم القاهرة حيث شهد بيعة فخمة وتوفي في القاهرة سنة ١٩٦٤، انظر: بهنام سليم حبابة، الاباء الدومنيكان في الموصل، اخبارهم وخدماتهم ١٧٥٠-٢٠٠٥، (الموصل،٢٠٠٥)، ص ١٤٦.

(٥٧) هذا الرقم يقارب اعداد النصارى خارج مدينة الموصل فقط، حيث تزيد اعدادهم عن (١٥٠٠٠) خمسة عشر الف نسمة ويمكن ذكر توزيعهم السكاني والمكاني بالتفصيل كما يأتي: ففي داخل المدينة هناك محلة باسمهم تسمى (محلة النصارى) تقع غرب المدينة، وبلغ عددهم بحدود (٦٥٠٠)، ومنهم الكاثوليك والسريان والكلدان بحدود (٤٠٠٠) اربعة الاف نسمة، اما اليعاقبة الأرثوذكس فعددهم (٢٠٠٠) الفي نسمة، وهناك (٢٥٠) نسمة من المذاهب النصرانية الاخرى، وفي القرى المحيطة بمدينة الموصل، هناك بحدود (٩٤٠٠) نسمة منهم (٢١٥٠) من السريان و (١٣٠٠) من اليعاقبة، الارثوذكس الى جانب (١٢٠٠) من الكلدان، وقد شهدت اعدادهم تزايد ملحوظ في النصف الثاني من

القرن التاسع عشر بالنظر لتطور وتحسن اوضاعهم المعاشية والصحية. انظر: عروبة جميل محمود عثمان، الحياة الاجتماعية في الموصل (١٨٣٤-١٩١٨)، اطروحة دكتوراه (غير منشورة)، قسم التاريخ كلية الاداب، جامعة الموصل٢٠٠٦، ص ص ١١٩-١٢٠. ويبدو ان الاحصائيات السكانية لاتتفق فيما بينها لعدم وجود احصاء سكاني دقيق، بل قائم على التخمينات، انظر ايضاً: شيلدز، المصدر السابق ص٨٥.

(٥٨) ان اول مدرسة افتتحت في الموصل للاباء الدومنيكان الايطاليين سنة ١٨٤٠، وبلغ عدد المدارس اواخر القرن التاسع عشر (١٦) مدرسة للنصارى وازداد عددها الى (١٩) سنة ١٨٥٦، بعد مجيء الاباء الدومنيكان الفرنسيين وفي سنة ١٨٧٣ اسست (مدرسة اخوان المحبة) وفي سنة ١٨٧٧، فتح معهد كهنوتي للطلبة (السمنير)، وبلغ عدد الطلبة سنة ١٨٧٤ في مدرسة الآباء الدومنيكان (٣٥٥) طالب، وعلى اية حال فان عدد الطلاب الذي ذكره الكاتب لايمكن الاطمئنان اليه فهو اكثر من الرقم الحقيقي. انظر: الطائي، الاتجاهات الإصلاحية، ص ص ٢٤٨-٢٥٢.

(٥٩) الرقم الذي اورده عن السريان الكاثوليك غير دقيق، انظر الهامش (٥٧).

(٦٠) نسبة الى كلمة بالفرنسية "capuchonn'e" وهو معطف ذو غطاء للرأس ومنها عرفت جماعة دينية رهبانية فرنسية بالكبوشيين لانهم كانوا يلبسون معطفاً ذو غطاء للرأس، وهم فرقة من فرقة الفرنسيسكان ومؤسسها الأب ماثيودي سنة ١٥٢٥ وتدعو للتبتل في الحياة، الطائي، الاتجاهات الإصلاحية، هامش (٦)، ص١٧٣.

(٦١) أول بعثة او إرسالية للآباء الدومنيكان وفدت الى الموصل سنة ١٦٣٦ وتركوا المدينة وعادوا سنة ١٦٦٧ واغلقت كنيستهم سنة ١٧٢٤ ثم عادوا مرة أخرى سنة ١٨٤٨، لممارسة عملهم التبشيري باعتناق المذهب الكاثوليكي اذ تركوا الموصل سنة ١٨١٥ وعادوا اليها سنة ١٨٤٠ وهذا يدلل على الصعوبات التي واجهها هؤلاء الاباء في عملهم، حتى نقلت قيادتها الى الآباء الدومنيكان الفرنسيين سنة ١٨٥٦. للتفاصيل انظر: سلامة حسين كاظم، التبشير في العراق وسائله واهدافه، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥، ص ص ٩٠-١٦٥.

(٦٢) لقد سبق الحديث عن الآباء الدومنيكان في هامش رقم (١٥) ويمكن القول ايضاً، هم فرقة رهبنة تنتسب الى دومنيكو دي كوزمان، ولد سنة ١١٧٠م في اسبانيا وجمع حوله اتباع في عدد من دول اوربا، وفي سنة ١٢١٧ اسس دير دومنيكي، انظر: حبابة، المصدر السابق، ص٢٢.

(٦٣) لايمكن الاعتماد على الرقم الذي اورده الكاتب، فهو مبالغ فيه، ويمكن مقارنة ماورد في هامشنا رقم (٥٨) عن مدارس الاباء الدومنيكان وعدد طلابهم.

(٦٤) هل يعقل ان ممثل البابا في العراق، يستلم راتبه ونفقات اقامته ومصاريفه من امرأة فرنسية، دون الفاتيكان، فمن الثابت ان الموظف يأخذ راتبه من جهة التعيين، ويسترشد بتعليمات تلك الجهة، فهل هذا يعني ان الرجل يسترشد بتعليمات تلك السيدة، ماذا لو توفيت، هل يبقى دون راتب ومن يدفع له؟!

(٦٥) هنا يلتمس الكاتب العذر لليعاقبة بعدم قبولهم المساعدات المالية او دفع الرواتب لهم، بسبب الاختلاف العقائدي بين الطرفين، فمن المعروف بأن روما تضم الفاتيكان التي تتبع المذهب الكاثوليكي وتدعو له.

(٦٦) مما يذكر ان عدد المدارس في القرى الكلدانية سنة ١٨٧٤ قد بلغ (٧) مدارس، أي ضعف عددها داخل المدينة سنة ١٩٠٩، بموجب ما اورده الكاتب!. انظر حول مدارس الكلدان، الطائي، الاتجاهات الاصلاحية، ص ٢٥٢.

(٦٧) لا توجد تسمية لأية كنيسة في الموصل بهذه التسمية (كنيسة التبشير) انما المعروف بأن الاباء الدومنيكان اسسوا (كنيسة اللاتين) منذ سنة ١٧٥٠، ويطلق عليها احياناً تسمية (كنيسة الاباء الدومنيكان)، وقد اشرنا الى وجودهم ومدارسهم سابقاً.

(٦٨) لم يرد في كل الأدبيات والمصادر التاريخية المحلية وكتب الرحالة التي أرخت لأعمال الأدباء الدومنيكان، تسمية (التبشير الطبي)، إنما هناك التبشير الديني نحو الكثلكة المتعلقة بنصارى الموصل، رافقها فعاليات وأنشطة صحية والسعي لنشر الوعي الصحي في مدينة الموصل، وهي إحدى الوسائل الفعالة للتقرب من الناس، وقد نجحوا في اعمالهم تلك وبخاصة في الأوقات العصيبة والأوبئة والمجاعات التي مرت بها الموصل، منها، افتتاح مستشفى ليجون (Lejeune) سنة ١٨٧٦ لمعالجة المرضى، وموقفهم من المجاعة

وانتشار مرض الحمى التيفوئيدية التي فتكت بالسكان سنة ١٨٧٩-١٨٨٠ وغيرها، وهناك إشارة لخدماتهم في الهامش (١٧). للتفاصيل، راجع، الطائي، الاباء الدومنيكان وفعالياتهم الطبية، ص ص ١٠٨-١٠٩.

(٦٩) تحدثنا عن الفترة التي بدأت بها سلطات الاحتلال البريطاني في الموصل، بالاهتمام بالاوضاع الصحية وانشاء المستوصفات، انظر الهامش رقم (١٩).

(٧٠) لم تعرف مدينة الموصل، بعثات تبشيرية انكليزية بمستوى البعثات الفرنسية، وذلك بسبب اختلاف دعواتهما ومذهبهما فالفرنسيون يدعون الى الكثلكة، والانكليز يدعون الى البروتستانتية واشتهر منهم المبشر بادجر سنة ١٨٤٣، غير ان الانكليز اهتموا بالبعثات التنقيبية عن الاثار في خرائب واطلال نينوى وخرسباد والنمرود وغيرها، وعملوا على نهب وسرقة اللقى الاثرية، المعروضة حتى الان في متحف لندن. انظر عنهم: كاظم، المصدر السابق، ١٤٣.

(٧١) ماذا نستنتج من قول الكاتب (وباختصار في معظم الحالات تتشابه والى حد بعيد عادات النصارى والمسلمين في الموصل) الايعني ذلك ثمة تماثل في الرؤى والعادات الناجمة عن تلاحم النسيج الاجتماعي بين مكونات المجتمع الموصلي، آنذاك وبخاصة المسلمين والنصارى. بمنأى عن الصاق التهم جزافاً والتي تتعلق بالاضطهاد والتعامل الفوقي والهمجية التي سعى خلال كتاباته وفي اكثر من موضع بثها، في محاولة منه الى اظهار التمايز بين المسلمين والنصارى والى وجود فوارق بينهما، غير ان كتابات العديد من الرحالة تدحض ذلك كما بينا في الهوامش والتعليقات السابقة.

(٧٢) اليهود احدى مكونات مدينة الموصل يعود تاريخهم الى الاسر البابلي والآشوري، وهم قد عاشوا في محلة خاصة بهم تسمى (محلة اليهود) والتي سميت بعد نزوحهم الى فلسطين بعد سنة ١٩٥٠ (بمحلة الأحمدي) وامتهنوا مهن عدة، كالتجارة وممارسة بعض المهن الاخرى. للتفاصيل عنهم انظر: علي شيت محمود الحياني، اليهود في الموصل ١٩٢١-١٩٥٢، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠١٢، ص ١٢ و ٧٩.

(٧٣) في سنة ١٩٠٧ افتتح مكتب الاليانس الاسرائيلي، وليس جمعية، ويذكر خطأ ان افتتاحه تم تقريباً قبل سنة واذا اعتبرنا ان كتابة التقرير كانت سنة ١٩٠٩ فإن المكتب افتتح قبل سنتين وليس كما ذكر، انظر: عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (١٦٣٨-١٩١٧) ، (بغداد، ١٩٥٩)، ص ٢٠٩.

(٧٤) مصطفى يمني بك وليّ على الموصل خلال السنوات (١٩٠٣-١٩٠٦)، انظر، الطائي، الاتجاهات الإصلاحية، ص٤٠٧.